لِماذا أشكُّ فيهَا؟

اثنان لا يشكان في المرأة التي يحبانها، وباب الشك فيها مغلق عندهما: شابٌّ في مقتبل أيامه، مخدوع في أحلامه، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية يرتفع بها إلى سماء الطهر، ويكبرها أن تخون ويكبر نفسه في الحقيقة أن يُخَان، ويسمع منها أنها تمحضه الحب وتخلص له الولاء، فلا يدور بخلده أنه يسمع كلامًا يحتمل الصدق والكذب، ويجوز فيه الغلو والتزويق، ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل إليه أنهما يتعاهدان على مستحيل؛ لأنه يتمنى، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون.

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى، يؤتى إليه أنه حَسْب المرأة من أمنيةٍ ومطمعٍ، فلا منصرف لها عنه، ولا معدى لها إلى غيره، وإلا فماذا عساها أن تبغي عند غيره؟ إنه رضى النساء من جمالٍ واعتدالٍ وقوةٍ ومالٍ، فإذا قنعت به فما هي بمظلومة، وإن تقنع به إنها إذن لظالمة!

حسنٌ، ولكن ألَّا يحدث في الدنيا أن تكون المرأة ظالمة؟

كلا؛ لأن ذلك لا يسرُّه! وكفى ألَّا يسرَّه شيء من الأشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون!

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك.

لَمْ يكن شابًّا في مقتبل أيامه؛ لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين.

ولم يكن مخدوعًا بهذا الضرب من الغرور؛ لأنه موكول إلى ضروبٍ من غرور النفوس، مطبوع على أن لا يعلق قيمته في معارض الفخر والمباهاة على رأيِ إنسان من النساء، أو من الرجال.